في النقد الثقافي : مقاربات في أمراض الأنا والآخر

بقلم: الدكتورة ربيعة جلطي

جامعة الجزائر 2 كلية الآداب واللغات

لعل واحدا من أهم العوامل التي تشكل ارتباكا وخللا في تقاسم الثروات والكنوز الإنسانية الثقافية والمعرفية والاقتصادية هو الخوف: الخوف من الآخر وخوف الآخر منا. وفي الحال هذه تتكاثر الحروب وتتوالد الكراهيات والقطائع والأمراض الثقافية والاجتماعية والسياسية وبالتالي فهي الأساس الأولي لبذرة التخلف أو التعصب الذي يتستر بستار حماية ـ الذات ـ والخوف عليها مما يسمى بالذوبان أو التفكك أو التلوث أو الاحتواء.

والخوف الإبستيمي، الخوف المعرفي، هي حالة تاريخية يعيشها الشمال كما يعيشها الجنوب على حد سواء، يعيشها الشرق كما يعيشها الغرب على قدم المساواة.

ويمكن اعتبار الخوف الثقافي صناعة تمارسها الشعوب التي تعيش حالة من التخلف وأيضا حالة من العلاقة المضطربة تجاه ما يسمى بمشكلة الهوية الحضارية أو الوطنية أو القومية.

تجليات الخوف الابستيمي في الغرب :

أنتجت الثقافة الغربية في حالة توسعها الاستعماري في إفريقيا ما بعد الصحراء، أنتجت ثقافة احتقار الأسود الذي كان إلى زمن قريب عبارة عن سلعة تباع وتشترى لخدمة السيد الأبيض، وبعد الاستقلالات الوطنية التي حازت عليها كثير من الدول الإفريقية ووصول جالية من هذه البلدان كيد عاملة إلى أوروبا وانتشار ثقافة حقوق الإنسان في العالم، وتوسع وانتشار خيرات المعرفة والعلوم

فإن مجموعة من الأوروبيين الذين بقوا على نوسطالجيا (الأسود ـ السلعة) تولدت لديهم بوادر مرض يمكن أن نسيمه : ـ الزنجفوبيا (Negrophobie) [1]

وفي مرحلة تالية و مع انحسار الفكر الاستعماري المباشر الكلاسيكي اتخذ هذا المرض (فوبيا الآخر) تجليات وصورا كثيرة عكست حالة من الارتباك والتأزم السياسي والثقافي والاقتصادي الذي دخلته أوروبا قبل الوحدة وأثناء التوحيد وقد تم التعبير عنه من خلال كثير من الممارسات التي تجلت في الحياة الاجتماعية اليومية والتي أفرزت جراء ذلك سلسلة من المفاهيم المعرفية والاصطلاحية التي ننحتها في العربية كما يلي :

1ـ **العربوفيا** Arabophobie:

وهي علّة سياسية ثقافية لغويه محورها الخوف من (العربي) وهو خوف يغلف دائما بكثير من الأوصاف العنصرية التي تلحق بالعربي: الخائن، الوسخ، غير الوفي، الخداع، العنصري، غير الحضاري، المنتقم... وهي ثقافة مرجعيتها كثير من مخلفات النظام الاقتصادي الكولونيالي وثقافته العنصرية التي تأسس عليها منذ بداية القرن التاسع عشر.

وهذه التهم والتوصيفات الملحقة بالعربي لا تستثني البربري، فإذا كان الاستعمار في السابق حينما كانت له اليد الطولى المنبسطة على بلدان المغرب الكبير وبشكل خاص الجزائر، يعمل على التفريق العرقي والسياسي بين العرب والبربر بقصد التجزئة حتى تتكرس الهيمنة، فإنه وبعد الاستقلالات الوطنية، لم يعد يفرق بين هذا وذاك، فالجميع في عين الثقافة العنصرية أو في نظر الثقافة المصابة بمرض العربوفيا كتلة واحدة تصدر ذات الريبة وتنتج الخوف وتتطلب بالتالي ذات المقاومة وتفرض طرق التهميش.

2ـ **المغاربفوبيا** Maghrébophobie:

وهي الفوبيا التي ينتجها الوجود المغاربي في الحيز الأوروبي بشكل عام وفي بلجيكا وهولندا وعلى وجه الخصوص في فرنسا، ونظرا لعدد المقيمين

المغاربيين الذين يبلغ حوالي خمسة ملايين نسمة فإن social visiblité lea الوجود الاجتماعي الواضح والمكثف يخلق ردة فعل ثقافية سياسية رافضة وخائفة، تتأكد يوميا في ثقافة أحزاب اليمين المتطرف التي أصبحت تحقق تواجدا سياسيا كبيرا وقد بدأت تنتقل إلى حقول النخب حيث ظهرت بعض بوادر هذه المغارفوبيا في خطابات النخب الفلسفية والأدبية والإعلامية والفنية [2] وهو ما يعمق المرض ويجعل الخوف من المغاربي سلاحا سياسيا في الخطاب الاقتصادي وأيضا في بناء الاتحاد الأوروبي أو تهديده.

الإسلاموفوبيا Islamophobie:

ولعل بقايا هذه الإسلاموفوبيا تجيء من بقايا ذاكرة الحروب الصليبية، إلا أنها تجدد سياسيا وبشكل واضح في العشريتين الأخيرتين وقد تقننت سياسيا وإعلاميا وعسكريا بعد هجوم 11 سبتمبر ضد المجمع التجاري الأمريكي.

لقد مثلت أحداث 11 سبتمبر المفصل التاريخي للإسلاموفوبيا حيث أصبح كل ما يمت للإسلام مرتبط عضويا بالإرهاب، وانتقلت عدوى الإسلاموفوبيا من النخب إلى العامة، حيث أصبحت الإسلاموفوبيا مرضا اجتماعيا عاما متفشيا في كل الطبقات الاجتماعية الأمريكية والأوروبية.[3]

ويجب التنبيه إلى أن كثيرا من المصابين بمرض الإسلاموفوبيا لا يفرقون بين (العربي) و(الإسلامي) فهم لا يتصورون أن هناك عربيا مسيحيا أو عربيا يهوديا، ففي مخيال الإسلاموفوبي الأمريكي أو الأوروبي إن كل عربي هو مسلم بالضرورة وبالتالي هو إرهابي بالحتمية الدينية [4]. وساعد على تنمية ثقافة الإسلاموفوبيا ظاهرة الإرهاب التي أصبحت مادة الإعلام العالمي وشبكات القنوات التليفزيونية التي تحولت إلى أجهزة ملحقة بوزارات الدفاع وبالجيوش التي تجوب العالم برا وبحرا، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، ومن هذه الحال تعممت الإسلاموفوبيا في الاجتماع والسياسة والدين والثقافة والإعلام و السياحة والاقتصاد والمال والأعمال.

إن الحرب على الإرهاب وما تلاها من تفكك بنية الدولة التي تنحدر من منتصف القرن الماضي، دولة هي نتاج الإيديولوجيا الوطنية أو القومية التحريرية، والتي لم تعد صالحة الاستعمال السياسي في هذا القرن، نتيجة كل ذلك تولدت ظاهرة ثقافة الاستبداد والغضب والرفض تمثل ذلك في ما سمي بالربيع العربي: تونس، ليبيا، مصر، اليمن، سوريا، السودان .. الوضع هذا وسّع من مساحة ثقافة الإسلاموفوبيا وأنتج بالمقابل تنوعا في الدين السياسي.

الخوف الجنوبي من الآخر :

الخوف من الآخر الغربي، هي ثقافة ورثها الفرد في بلدان الجنوب من أيام الاستعمار.

ويتميز هذا الخوف بخصوصيات بعضها يجد منبته في المجال السياسي وبعضها في الديني و بعضها في اللغوي- الثقافي و بعضها في اضطراب الهوية.

الكافر: إن إصباغ صورة الكافر على الآخر، ثقافة يغرف منها الفرد الجنوبي المغاربي والمشرقي الذي يستند على الفهم الساذج للدين أو على النفعية السياسية في استغلال الدين إنها ثقافة وجدت لها منظرين كثرا يتمثلون في مجموعة كبيرة من نجوم المفتين والدعاة الدينيين الأيديولوجيين الذين أصبحوا يتاجرون بالدين مستغلين سذاجة المسلم البسيط فيكرسون ويعمقون فيه كراهية الآخر بحجة الخوف على (الإسلام)، والخوف على (الله) وعودة الحرب الصليبية. وبالتالي يمارسون شحن جيل كامل بثقافة الكراهية والجهادية والقطيعة مع الآخر (5).

المستعمر: يحاول أصحاب الدعوة إلى فوبيا الآخر أن ينقلوا الماضي إلى الحاضر وذلك باستعادة الذاكرة الاستعمارية لا لنقدها وإدانتها (وهذا واجب الذاكرة) والذهاب في البحث عن علاقة جديدة مع هذا الآخر مؤسسة على الاحترام المتبادل والاستقلال والشراكة، بل لتغليب ثقافة التوجس والحذر من هذا الآخر عدو الماضي والنظر إليه على أنه عدو الأبد والتركيز على أنه غرب واحد ومتجانس ومتفق على الاستعمار وأنه لا يزال يتربص بنا لاحتلالنا من جديد [6].

مقولة عداوة العروبة: يركز حاملو فيروس فوبيا الآخر على مقولات إيديولوجية جاهزة وهي أن (الغرب ضد العروبة) وأنه لا يبحث سوى على التخلص منها والقضاء عليها، وقد ظهر مصطلح (حزب فرنسا في الجزائر خاصة) للترميز إلى هذا التربص بالعروبة ومحاربتها من الداخل، أي من خلال فيلق المثقفين المفرنسين، كل هذا لقطع كل ما يمكن أن يجمع الضفة الجنوبية بالشمالية من خلال الثقافة واللغة المشتركة التي يمكننا أن نحولها إلى عامل لتطوير علاقة شراكة لبناء مستقبل مؤسس على ما هو إيجابي دون نسيان ما هو سلبي، ولقد انتبه كاتب ياسين إلى هذه العلاقة حين قال عن اللغة الفرنسية بأنها غنيمة حرب.

معاداة القضية الفلسطينية: لإذكاء نار العداوة ما بين الجنوب و الشمال يوظف دعاة فوبيا الآخر القضية الفلسطينية التي لا أحد يشكك في عدالتها، وذلك من أجل تأجيج ثقافة الكراهية عن طريق تعميم الأحكام واعتبار موقف الغرب موحدا تجاه هذه القضية التي هي قضية تصفية استعمار وحق شعب في استعادة أرضه واستقلاله، وجب التذكير إلى أنه كما كان للثورة الجزائرية أصدقاء من الأوروبيين ومن الفرنسيين أنفسهم الذين ضحوا بحياتهم من أجلها فإن للقضية الفلسطينية رأسمالا مهما من أصدقائها في أوروبا وأمريكا الذين يدافعون عنها بشتى السبل ولا بد من الاستثمار فيه للدفاع عن هذه القضية العادلة.

فوبيا الأنا من الأنا نفسها:

نظرا لغياب المبادئ الأساسية للثقافة الديمقراطية، وبالتالي انتفاء الحوار الصحي الثقافي والسياسي الحضاري بين أبناء الجنوب أنفسهم، فقد نتجت جملة من أمراض الخوف من الأنا التي تتجلى مفتتة ومهشمة من الداخل، ونلمس هذا بشكل جلي في طبيعة النخب التي تحولت إلى قيطوهات متصارعة ومتنافسة ومتقاتلة، تعيش حالة من الخوف والحذر اليومي من بعضها البعض:

أ- قيطو المثقفين المعربين.

ب - قيطو المثقفين المفرنسين.

ج ـ قيطو المثقفين الأمازيغيين.

وهي تكتلات تعيش حالة التوجس والحذر التي تصم وتكدر علاقة العيش والتعايش فيما بينها، ينعكس ذلك سلبا على عملية التطوير الحضاري والسياسي وبناء أفق انتظار إيجابي موحد مع احترام التعدد الذي هو في حقيقته كنز وليس تفككا، إنها حالة تاريخية تؤكد عطبا تاريخيا وأيضا توحي بانسداد أفق التغيير والتطور بمفهومه التاريخي الحضاري الشامل.

أمام هذا بدت المجتمعات المغاربية (الجزائر حالة نموذجية) وكأنها مشكلة من ثلاثة شعوب بثلاث مجتمعات :

أ ـ مجتمع عروبي إسلاموي ينظر إليه على أنه تقليدي و يعمل على سحب المجتمع نحو الماضي يستند إلى الثقافة العربية الإسلامية.

ب ـ مجتمع فرنكفوني مرتبط بالثقافة الغربية والفرنسية بشكل أساسي، وهو يميل في خطابه إلى الحداثة والتنوير والبحث عن ربط علاقته ومصيره بالغرب لغة و ثقافة وممارسات سلوكية يومية.

ج ـ مجتمع أمازيغي يعيش حالة من المابين، يبحث عن ارتباط بالآخر مع التأكيد على الهوية الأمازيغية المسلوبة التي تم اغتصابها من قبل الأنظمة السياسية المتعاقبة في البلدان المغاربية. وبالتالي فالمجتمع الثقافي الأمازيغي يعيش حالة من الخوف ثنائية الحدة، فهو يخاف من المغامرة مع الآخر وفيه لأن ذلك سيكلفه الابتعاد عن لغته وثقافته التي تعيش حالة من التهميش والتحقير والفلكلورية من جهة، ويخاف من الشريك في الوطن من العروبيين لأن هذا الوجود لم يكن إلا على حساب الثقافة المحلية الأصلية التي هي الأمازيغية.

ما هي شروط الحوار الذي يحرر الأنا من فوبيا الآخر؟:

أ ـ اللغات الأجنبية:

إن تعلم لغة الآخر هو تعبيد لطريق سالك وأساسي للوصول بأمان إلى الضفة الأخرى. فتعلم اللغات الأجنبية هو شرط لفهم الآخر وسبيل لقياس (الأنا)

في حضرة مرآة هذا الآخر، أي ممارسة النقد الذاتي ونقد الآخر، وإقامة فعل المقارنة الذي هو عامل مركزي للتخلص من الفوبيا [7].

إن (الاستماع) إلى الآخر فن. و الاستماع لا يعني الرضوخ، فمن لا يحسن السماع إلى غيره، لا يستطيع إسماع صوته إلى هذا الغير نفسه. إن الحوار يشترط الحضور، والحضور يشترط فيه توفر فضيلة التماهي الإنساني بالاستماع والإصغاء والإنصات.

إن الإستماع هو نصف الحوار.

فقه الاستماع هو نصف الخطاب.

حين يتوفر فن الاستماع يكون المتحاوران قد قطعا نصف المسافة التي تفصلهما عن بعضهما البعض. وكلما أدركنا وتحكمنا في ناصية لغة الآخر تحكمنا في مفاصل الحوار أكثر وتحررنا من شيطان الوسيط وفخ التأويل المضاعف.

لعل أول ما يطرح من إشكال لتحقيق حوار جاد وعميق مع الآخر، أمام أهل الجنوب في المشرق وشمال إفريقيا، يتمثل في إعادة النظر في مناهج تعليم اللغات الأجنبية. إن جامعاتنا ومعاهدنا ومدارسنا العليا وأنظمتنا التربوية في سنواته الابتدائية والمتوسطية والثانوية والجامعية، تتبع نظاما تعليميا معطوبا، أتحدث هنا في ما يتصل بشأن تدريس اللغات الأجنبية.

وأعتقد أنه، وبقدر ما ندرك ونشعر بأن الآخر يتعالى، أي الغرب، في الشمال، ونظرا لتفوقه الثقافي والعلمي والتكنولوجي، و(يستصغرنا)، علينا بمنطق التحدي أن نبذل جهودا مضاعفة لتعلم لغاته كي نفهمه، ونصل إلى مستوى محاورته حوار الند للند.

ولن يكون ذلك في تصوري إلا بتعلم اللغات الأجنبية والتمكن من أسرارها، دون التفريط بطبيعة الحال في اللغات الوطنية، لعله السبيل الأمثل

لمحاربة عقدة (الخوف) / فوبيا الآخر/ والتخلص من عقدة (الكبير والصغير) أو ما عرف بمصطلح (الهامش والمركز) على حد تعبير سمير أمين.

إن الأمم التي تستند إلى نخب قادرة على الاستماع إلى الآخر بلغته مباشرة و دون وسيط، مؤهلة لخلق توازن داخل السيكولوجيات الجمعية والفردية لنخبها وهي تواجه الآخر وفي الوقت نفسه تواجه الأنا في بحثها المستمر عن هذا الآخر الذي هو قدر تاريخي عليها التعايش معه [8].

علينا أن نعترف بأن جامعاتنا لا تخرج أكثر من حاملي (شهادات) عليا في اللغات الأجنبية ربما الكثير منهم لا يعرف تركيب جمل صحيحة ودقيقة!! حاملي شهادات عليا لم يقرؤوا خلال سنوات الجامعة كلها كتابا واحدا بلغة أجنبية.

أن تكون على معرفة بلغة محاورك خصما كان أو صديقا أو عدوا أو شريكا، يوضح أمامك الطريق فإن التمكن اللغوي والتموقع العارف باللغة، يقصر المسافة بينك وبين الآخر ويخلق جوا من الاطمئنان ويؤسس لنصف الثقة، ويجعل نسبة الإخفاق في الوصول إلى بناء أفق مشترك أقل بكثير مقارنة مع حوار تنتفي فيه اللغة المشتركة المباشرة.

الغرب وتعليم اللغة العربية:

منذ أحداث 11 سبتمبر الإرهابية، طرح العالم الغربي سؤالا معرفيا ولغويا جديدا على ذاته السياسية والثقافية والروحية وهو: كيف يمكننا فهم الآخر، بأية وسيلة ؟ والآخر هنا هو الإسلامي المرتبط عضويا وبنيويا في عقل الغربي ب (العربي)، وكان عامل اللغة على رأس الجواب على هذا الاشكال، فهو العقبة التي تحول دون الوصول إلى تفكيك بنية العقل العربي والإسلامي الجديدين اللذين تشكلا عشية انهيار سور برلين ومعه انهيار المعسكر الشرقي و تبدلت موازين خارطة القيم السياسية والاقتصادية والثقافية العالمية.

كانت غاية تعلم اللغة العربية في القرون الثلاثة الماضية الثامن والتاسع عشر والعشرين غايته إما التحضير لاستعمار التقليدي أو محاولة فهم الروحانيات

الشرقية أو محاربة هذه اللغة وتعويضها بلهجات محلية أو الكشف عن غموض هذا العالم الذي أنتج حضارة دوخت العالم ذات زمن بينما يغرق الآن في التخلف بعد كل الأنوار التي قدمها للبشرية في مجالات مختلفة كالفلسفة والطب والرياضيات والهندسة والكيمياء.

ومع أحداث 11 سبتمبر تغيرت استراتيجية تعلم اللغة العربية في الغرب، من استراتيجية محاولة الفهم إلى استراتيجية الدفاع عن الذات من (خطر) أساسه مجموعة من الأفكار الواردة في نصوص رئيسية مكتوبة بالعربية.

لقد تحول تعلم اللغة العربية في الغرب (أوروبا وأمريكا) من مقاربة حضارية إلى مقاربة تمليها أزمة أمنية بالأساس. فلفهم ما يجري في هذا العالم العربي والإسلامي تجندت كثير من الهيئات الأكاديمية والأمنية والعسكرية على تعلم هذه اللغة التي هي المفتاح لفهم ظاهرة الإرهاب ولفهم الإنسان المدفوع إلى الإرهاب مستندا على مرجعيات مكتوبة باللغة العربية في غالبيتها.

لقد تحول حوار الآخر معنا إلى حوار أمني قائم على الحرب واستعمال القوة والتدخل المباشر أو غير المباشر كل هذا التحرك مؤسس على الخوف، أملا في التخلص من الفوبيا الجديدة التي أسس لها الإرهاب، والذي بموجبه وبممارساته كرس قطيعة أخرى مبنية على الكراهية والحروب الجديدة والعنصرية الدينية، يرتكز هذا الحوار الأمني على المستوى الثقافي المعرفي على تعلم اللغة العربية التي أصبحت تحتل الموقع الثالث على المستوى العالمي من حيث الإقبال على تعلمها في المدارس العليا والجامعات الأوروبية والأمريكية العسكرية والمدنية.

انتلجانسيا عربية بلغات أجنبية: الاستثمار المعطوب

اللغة الفرنسية غنيمة حرب، هكذا كان يقول كاتب ياسين.

اللغة الفرنسية هي منفاي، هكذا كان يردد مالك حداد.

اللغة الفرنسية مأوى لي، هكذا تقول آسيا جبار.

اللغة الفرنسية مستعمرتنا الجديدة، هكذا عبر أمين الزاوي.

إن قراءة تجربة الثورة الجزائرية في علاقتها بلغة العدو آنذاك/ الاستعمار الفرنسي، تعلمنا الذكاء الثوري وتسبيق الأولوي على الثانوي، إذ أن العدد الأول من جريدة (المجاهد) لسان حال الثورة الجزائرية بجيشها وجبهتها قد صدر باللغة الفرنسية، لغة العدو. لقد اعتبرت الثورة الجزائرية اللغة الفرنسية سلاحا عليها استعماله لتحقيق هدفها دون السؤال عن صانعه، بل كان تساؤلها المركزي هو عن مدى فاعليته وكيفية التعامل معه.

وإذا كان استعمال اللغة الفرنسية ذات الموقع الخاص والمتميز في مجتمع المعرفة والإبداع والحياة اليومية قد ولد حالة لسانية استثنائية في بلدان المغرب العربي، فعلينا اليوم أن نستفيد من الأنتلجانسيا التي تتعامل بهذه اللغة من أجل تثمير الحوار مع الآخر على أسس متينة وصادقة إبعادا لكل أحكام مسبقة وشمولية عن المغاربي والعربي والمسلم.

إن كتابا من أمثال محمد ديب وكاتب ياسين ومولود معمري ومولود فرعون ومالك حداد وأمين معلوف والطاهر بن جلون وآسيا جبار وألبير ميمي وإدموند عمران المليح وعبد اللطيف اللعبي ورشيد بوجدرة ومحمد أركون وجمال الدين بن الشيخ وعبد الكبير الخطيبي وعبد الله العروي ومحمد خير الدين وأنور بن مالك ومالك شبيل والطاهر جاووت وأمين الزاوي وحميد قرين وسليم باشي وياسمينة خضرا ومايسة باي وغيرهم، هؤلاء الكتاب أصبحوا برواياتهم وأشعارهم ودراساتهم الفكرية والدينية والأنثروبولوجية من أكبر صناع المخيال الغربي، لقد دأبت هذه الإنتلجانسيا ذات الأصول المغاربية والعربية التي تكتب بلغة الآخر (الفرنسية هنا) ومنذ الحرب العالمية الثانية على نحت مكان رمزي لها داخل الانشغال الفكري والإبداعي واللغوي لدى الغرب. وبقدر ما تمثله كتابات هذه الأنتلجانسيا في البلدان الغربية من حضور فإن لها تمثيلا متميزا أيضا داخل أوساط القراء في بلدها الأصلي.

إن هذه الثروة المغاربية والعربية الإبداعية والفكرية التي يتقاطع فيها العالمان العربي والأوروبي هي ثروة مشتركة بين الشمال والجنوب على السواء، هذه الثروة البشرية من النخب قادرة على أن تكون عاملا مهما في بناء الحوار الذي نبحث عنه ما بين الضفتين.

وحتى تتحقق الفائدة والإفادة من هذه النخب المغاربية والعربية التي تبدع داخل لغة الآخر على الأنظمة السياسية في الجنوب أن تكون على استعداد لقبول التعدد والحق في الاختلاف وحرية التعبير، دون ذلك، وفي غياب الديمقراطية، لن تحقق هذه الكتابات بعدها في التقريب بين الأنا والآخر، والتغلب على الخوف ومحاربته، خوف أصبح ثقافة العصر تغذيه تيارات متطرفة في الجهتين.

إن الغرب حين يرى بأن هناك انفتاحا من قبل الجنوب على نصوص مشتركة، زد على ذلك إنها مكتوبة بلغته، (حس الزهو والاطمئنان) يخلق هذا الوضع نوعا من الحالة السيكولوجية التي تسمح بنمو وقيام حوار العمق والثقة.

ما هو مطلوب اليوم، وحتى يتأكد الحوار وتتراجع الفوبيا من الآخر، هو العمل على تشكيل تجمعات للإنتلجانسيا المغاربية والعربية المتواجدة في بلدان المهاجر، تجمعات تكون منفتحة ومتفتحة على بلدانها الأصلية. إن مثل هذه التجمعات يمكنها أن تتحول شيئا فشيئا إلى لوبيات فاعلة في السياسة والاقتصاد والمال والأعمال كما هي فاعلة في الثقافة والفكر والإبداع.

إننا وحتى الآن، وعلى الرغم مما تملكه هذه الأنتلجانسيا من إمكانات هائلة، لم نستفد من طاقاتها في إطفاء نار التعصب، تعصبنا نحن وبالمقابل تعصب الآخر تجاهنا، وأعتقد أننا لم نفهم بعد الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه النخب في مد الجسور مع الآخر.

لا تزال الأنظمة العربية تنظر إلى هذه النخب المهاجرة بمنظار ضيق و بال ومشوش، منظار يختصر العالم والتاريخ في النظرة السياسوية الموسمية. إن هذه الأنظمة لم تتخلص بعد من نظرة الريبة التي تعامل بها أبناءها من الأدباء والمفكرين المقيمين في اللغات الأجنبية، لذا لا يمكن تأسيس الحوار السليم

إلا بعد مراجعة حزمة من الأحكام السياسية والثقافية الصادرة عن أنظمة الجنوب والموجهة لهذه النخب المهاجرة.

فوبيا-الآخر والوعاء البشري المغاربي المهاجر:

إن ما يعزز الحوار مع الآخر ويجعله ضروريا م فيدا للطرفين هو العامل الديمغرافي، فالمغرب الكبير يملك ثروة بشرية معتبرة مقيمة في أوروبا الغربية بشكل عام بلغ تعدادها في فرنسا وحدها قرابة الخمسة ملايين، وهو عدد بقدر ما يمكن أن يشكل عاملا مهما في مد جسور الحوار بين الضفتين فإنه في الوقت نفسه يمكنه أن يكون قنبلة موقوتة، نظرا للتهميش والإقصاء والعنصرية من قبل البلدان المستقبلة وبالتالي تصبح عرضة لكثير من الأمراض الأيديولوجية التي تسيء إلى بلدان المهاجر كما أنها تقدم نظرة سلبية وخاطئة عن البلد الأصلي.

إن هذا الوعاء الديمغرافي الذي هو مجموعة بشرية منتجة لقيم فكرية ولغوية ومادية اقتصادية وسلوكات اجتماعية ودينية، يمثل جزء من ثقافة الشراكة التي لا يمكننا تغاضي الطرف عنها أو التقليل من دورها.

على ثقافة الشراكة التي تنتجها هذه المجموعة البشرية بما تحتويه من عناصر تنتمي إلى مخيالين، مخيال الشمال ومخيال الجنوب، عليها أن تتحول إلى قاعدة من قواعد الحوار الذي يبدد الخوف ويحارب فوبيا الآخر، وأن تكون فضاء للتلاقي والتلاقح التاريخيين وشكلا من أشكال تصور المستقبل المشترك.

إذا كان الجيلان الأول والثاني من العمال المهاجرين المغاربيين في أوروبا قد عانا الكثير نظرا للجهل والأمية التي كانا عليها إذ إن غالبية الطبقة العاملة المغاربية في أوروبا في فترة ما بين الحربين كانت لا تحسن القراءة ولا الكتابة، إلا أن الجيل الجديد [9] ، إلا أن بدأ يتموقع وبشكل واضح أكثر فأكثر في مواقع القيادة في المؤسسات السياسية والاقتصادية والإدارية، بذلك أصبح هذا الجيل الجديد وازنا في رسم الحلم الأوروبي اليوم، لذا علينا التفكير في طرق عمل جديدة معه وبه واستنهاض الذاكرة النائمة لديه تجاه بلدانه الأصلية كي تكون الطريق الأضمن لحوار مثمر يعود بالخير على البلدان المستقبلة والبلدان الأصلية.

المراجع

1- ميمي، ألبير، صورة المستمر والمستعمر، ترجمة جيروم شاهين، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1980.

2- د .عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، بيروت، 1973. يمكن الإشارة هنا إلى ما حدث للمسرحي الفرنسي ديو دونيه أو الردود التي حصلت جراء انتخاب الفيلسوف Alain Finkielkrau عضوا في الأكاديمية الفرنسية.

3- نعوم شومسكي: السلطة والرعب، حوارات بعد 11 سبتمبر منشورات سيربون آبلوم باريس 2011 Noam Chomsky : Pouvoir et terreur – entretiens après le 11 Septembre éditions Serpent à plumes Paris 2011

4- سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام؟ منشورات دار النهضة مصر 2006

5- محمد أركون: العلمنة والدين: الإسلام، المسيحية، الغرب، ترجمة هاشم صالح منشورات الساقي بيروت 1996

6- وحيد بن بوعزيز: فرانز فانون في التفكير ما بعد الحداثي: الكلمة والشيء، جريدة القدس العربي لعدد تاريخ 18 سبتمبر 2013

7- عبدالقادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، دار الحداثة، ترجمة سليم بيوض، ط1، 1984. ينظر أيضا

MAZOUNI (A) : Culture et enseignement en Algérie " et au Maghreb, " éditions F, Maspero , Paris (1969)

8- د. عبدالقادر جغلول: (بالاشتراك مع مجموعة من الباحثين) تطور الأنتلجنسيا المغربية، الأصالة والتحديث في المغرب، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1984. ينظر أيضا كتاب: عمار بلحسن : أنتلجنسيا أم مثقفون ؟ دار الحداثة، بيروت، 1987.

9- د. عمار هلال: نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر، 1954، دار لافوميك، الجزائر، 1986.